العرب
الخميس 2021/02/04
السنة 43 العدد 11961

القوقاز ساحة التحدي الجديدة لإيران بعد حرب ناغورني قرة باغ

الاتجاهات الجيوسياسية المتغيرة لا تعمل لصالح النظام في طهران

صراع نفوذ مستمر

غيرت حرب ناغورني قرة باغ الثانية المشهد الجيوسياسي في جنوب القوقاز، في ظل تشكيلة جيوسياسية جديدة، وستشكل القوقاز ساحة تحد جديد بالنسبة إلى إيران للحفاظ على نفوذها في ظل تنامي النفوذ التركي والدور الروسي ودخول إسرائيل على الخط، بعد أن أظهرت حرب قرة باغ مدى اعتماد باكو على التكنولوجيا الإسرائيلية.

طهران - إثر حرب ناغورني قرة باغ الثانية، وجدت إيران نفسها في مواجهة النفوذ التركي المتنامي شمال حدودها. فقد اكتسبت أنقرة ممرا عبر الأراضي الأرمينية، وقد ترسو في منطقة بحر قزوين. وسيمثل ذلك تحديا كبيرا لإيران، التي، إلى جانب روسيا، نظرت إلى منطقة بحر قزوين على أنها ضمن نطاق نفوذها.

وعلى الرغم من العلاقات المتزعزعة، فقد خدمت أذربيجان إيران كبلد عبور لممر النقل بين الشمال والجنوب الممتد من الخليج إلى بحر البلطيق. وسوف يحد النفوذ الاقتصادي التركي المتزايد، ناهيك عن النفوذ العسكري المعزز، من قدرة إيران على بناء علاقات أوثق مع باكو.

كما أن معضلة إيران معقدة بسبب اهتمامها الواسع النطاق بالحفاظ على علاقات ثنائية إيجابية مع تركيا. ويذكر أن علاقة أنقرة مع طهران تميزت بفترات من التعاون والصراع حول القضية الكردية وفي سوريا.

اتجاهات جيوسياسية متغيرة

يشرح إميل أفدالياني، أستاذ التاريخ والعلاقات الدولية في تقرير نشره "مركز بيجين - السادات للبحوث الإستراتيجية"، التحديات التي تواجه النظام الإيراني في القوقاز.

ويشير انتهاء حرب قرة باغ إلى بعض الاتجاهات الإيجابية بالنسبة إلى طهران، إذ فشل الغرب في توفير سياسة خارجية متوازنة تجاه المنطقة، مما يسمح بالتكيف مع الظروف المتغيرة على أرض الواقع.

كما يناسب التراجع الغربي عن المنطقة رؤية إيران، لكنه في المقابل يدفع تركيا وروسيا إلى ملء الفراغ الذي لا يتوافق مع المصالح الإيرانية أيضا. ويبدو اقتراح أنقرة الأخير بإنشاء اتفاقية سداسية تضم دول جنوب القوقاز، بالإضافة إلى روسيا وتركيا وإيران، علامة على الاتجاهات الجيوسياسية المتغيرة التي لن تعمل لصالح النظام الإسلامي بالضرورة.

وكان موقف إيران واضحا على الجبهة الدبلوماسية. فخلال الحرب، نظم نائب وزير الخارجية للشؤون السياسية، عباس عراقجي، جولة في باكو وموسكو ويريفان وأنقرة للمساعدة في إنهاء الحرب.

وفي 4 نوفمبر، شدد المرشد الأعلى الإيراني علي خامنئي على دعم إيران لخطة عراقجي للسلام، ولكن دون نتيجة تذكر. فلم يبد المتحاربون، ولا تركيا أو روسيا، أي اهتمام بالخطة.

كما عطلت الحرب التوازن الذي تحاول طهران الحفاظ عليه منذ التسعينات. وكان الخوف من وجود أذربيجان قوية وأرمينيا الضعيفة في صميم الرؤية الجيوسياسية الإيرانية.

لكن ميزان القوى القائم لم يعد قابلا للاستمرار، لأن المشهد الجيوسياسي في جنوب القوقاز لم يعد كما كان وقت وقف إطلاق النار في 1994. وقد أدت المشاركة العسكرية والاقتصادية التركية في أذربيجان إلى ترجيح كفة الميزان. كما ساهمت قوة أذربيجان الاقتصادية، المدفوعة من عائدات النفط والغاز، في هذه التغييرات. ولم يعد من الممكن الإبقاء على الوضع الراهن حول قرة باغ. ويحوم السؤال المطروح على إيران حول ما الذي يمكنها فعله لتأمين موقعها.

في حقيقة الأمر، لا تستطيع إيران أن تفعل الكثير لمنع نمو النفوذ التركي. فقد كان على موسكو (التي تتوافق إلى حد كبير مع موقف أنقرة) وطهران أن تتأكدا من مكافأة أذربيجان على نجاحها العسكري في إعادة الأراضي المفقودة.

وقد يفسر ذلك تغير خطاب إيران خلال الحرب. وعلى مدى الأسابيع الستة، أرسلت طهران أربعة ممثلين رسميين للمرشد الأعلى لزيارة الشمال والتأكيد على أن "قرة باغ تبقى جزءا من أذربيجان"، وأن لباكو كل الحق في السعي لتحرير الأراضي المحتلة بموجب الشريعة الإسلامية. وفي 3 نوفمبر، قال خامنئي "يجب تحرير الأراضي الأذرية التي تحتلها أرمينيا وإعادتها إلى أذربيجان".

روسيا وإسرائيل على الخط

إلى جانب العامل التركي، هناك العامل الروسي أيضا. إذ يتمركز نحو ألفي جندي من قوات حفظ السلام الروسية في قرة باغ. وأصبح وجودهم على بعد نحو 100 كيلومتر من الحدود الإيرانية مصدرا آخر لقلق طهران، التي سيتعين عليها تكريس الوقت والموارد وربما حتى القوات للتكيف مع هذا الواقع الجيوسياسي الجديد.

وقد يعني هذا الارتقاء التدريجي لجنوب القوقاز في السياسة الخارجية الإيرانية إلى نفس مستوى المسارح الأخرى تقريبا، مثل الشرق الأوسط على سبيل المثال. فقد استندت سياسات إيران تجاه جنوب القوقاز إلى المصالح الجيوسياسية أكثر من استنادها إلى المبادئ والخطابات الأيديولوجية التي تتغلغل في سياسات القيادة الإيرانية تجاه معظم جهات الشرق الأوسط. وفي بعض الأحيان، كانت السياسة الواقعية العملية مختلطة مع عناصر أيديولوجية، وخبرة تاريخية، وحسابات موازين القوى. ولكن، كانت المنطقة أقل أهمية بالنسبة إلى حسابات إيران من مسارح التوتر الجيوسياسي الأخرى.

ولا نعلم بعد ما الذي سيعنيه انتصار أذربيجان بالنسبة إلى الأقلية الأذرية في إيران. وقد تنشأ تعقيدات بالنسبة إلى طهران إذ يمكن للآذر الذين يعيشون في إيران أن يتمادوا في تطلعاتهم القومية. وقد كان الوضع العرقي الإشكالي بارزا خلال الزيارة الأخيرة التي أدّاها الرئيس التركي رجب طيب أردوغان إلى باكو، وهو الأمر الذي دفع طهران إلى اتهام أنقرة بالتدخل المتعمد في شؤونها الداخلية.

ومن المشاكل المحتملة الأكبر بالنسبة لإيران أن أذربيجان يمكن أن تستخدم كنقطة انطلاق للقوى الأجنبية لإبراز نفوذها في شمال البلاد.

وبعيدا عن تركيا، كانت علاقات أذربيجان مع الولايات المتحدة مصدر قلق لإيران قبل حرب 2020. وعلى الرغم من أن واشنطن غالبا ما انتقدت باكو، إلا أن مصالح البلدين تلتقي حول عدد من القضايا. وتتعاون لتعزيز أمن الطاقة الأوروبي، وتوسيع التجارة والاستثمار، ومكافحة الإرهاب والتهديدات العابرة للحدود. وسهر مرتزقة من شركة بلاك ووتر الأميركية (التي تسمى الآن أكاديمي) على تدريب مشاة البحرية الأذرية، وزودت الولايات المتحدة السفن للبحرية.

ويحوم خوف طهران الأكبر حول النمو المحتمل للنفوذ الإسرائيلي، وربما حتى الوجود الإسرائيلي السري في أذربيجان، كما زعمت بعض مصادر وسائل الإعلام الغربية. فقد أظهرت حرب قرة باغ مدى اعتماد باكو على التكنولوجيا الإسرائيلية. وكان هذا الدعم حاسما في تحقيق انتصارها من نواح عديدة. وقد تقدمت العلاقات الأذرية الإسرائيلية إلى درجة ظهرت فيها تقارير عن محاولة باكو التوسط في التوترات بين تركيا وإسرائيل.

وتتقاسم باكو وإسرائيل مصالح في الطاقة، كما أن مخاوفهما المتبادلة بشأن إيران تشكل حافزا قويا للتعاون بين البلدين. ولكن، من غير المرجح أن تتحدى باكو مصالح طهران علنا. وستكون هناك حاجة إلى دبلوماسية ذكية للتنقل بين المصالح التركية والإسرائيلية والإيرانية.

وما يمكن استنتاجه أن إيران تواجه تشكيلة جيوسياسية جديدة ومختلفة في جنوب القوقاز. وقد استبعدت من عملية التفاوض، وتشهد اضطرابا في ميزان القوى الذي أصبحت فيه أذربيجان أقوى وأرمينيا أضعف بكثير. كما تمكنت روسيا وتركيا من تعزيز مصالحهما العسكرية، وأصبح على إيران الآن أن تغير حساباتها التقليدية تجاه المنطقة.

وستُخلق الحاجة إلى التمتع بقاعدة موارد كبيرة إذا أرادت إيران أن توقف تراجع موقعها وتتنافس ضد قوة روسيا وتركيا و إسرائيل. ولا تبدو الآفاق مشرقة، فكثيرا ما أدت جهود طهران لتأكيد القوة الناعمة والاقتصادية إلى إبعاد دول جنوب القوقاز الثلاث.

> النفوذ الاقتصادي التركي المتزايد، ناهيك عن النفوذ العسكري المعزز، سيحد من قدرة طهران على بناء علاقات أوثق مع باكو

الهزارة قنبلة أفغانية توقيتها بيد إيران

باميان (أفغانستان) – ماذا يعني اتفاق سلام في أفغانستان؟ قد يبدو مثل هذا السؤال متفقا عليه بين غالبية الأفغان، لكنه بالنسبة إلى أقلية الهزارة من الشيعة، يحمل أكثر من مطلب لا ينتهي باتفاق حركة طالبان مع الحكومة.

الهزارة يمثلون مشكلة طائفية تاريخية بالنسبة إلى أفغانستان، فهم تعرضوا للتهميش والإقصاء إبان حكم طالبان، لكنهم في الوقت نفسه كانوا يمثلون مشكلة عندما يندفعون صوب إيران التي درّبت الآلاف منهم في معسكرات يديرها الحرس الثوري.

ويمثل الهزارة اليوم مشكلة مزدوجة في أفغانستان، فهم يتطوعون في ميليشيات مدعومة في إيران تقاتل في دول مختلفة مثل سوريا، وفي نفس الوقت يعانون من الإقصاء داخل بلدهم.

ويؤكد حميد الله أسدي، أحد أفراد طائفة الهزارة الشيعية التي تتعرض إلى اضطهاد على أيدي المتطرفين السنة منذ فترة طويلة في أفغانستان، أنه كان أمام أحد خيارين: إما أن ينتظر بعجز الهجوم الدموي المقبل وإما أن ينضم إلى مجموعة مسلحة للدفاع عن نفسه.

واختار أسدي القتال وأصيب قبل أشهر بجروح في هجوم انتحاري تبناه تنظيم الدولة الإسلامية داعش.

وقال حميد الله، الذي أصبح منذ ذلك الحين المتحدث باسم حركة المقاومة من أجل العدالة، وهي مجموعة من مقاتلي الهزارة الذين ينشطون في المرتفعات المغطاة بالثلوج في ولاية باميان في وسط أفغانستان، في تصريحات صحافية "اضطررنا إلى حمل السلاح".

وأضاف آسفا أن "أولئك الذين كان من يفترض أن يدافعوا عنا لم يكونوا في مستوى تطلعاتنا".

وتشهد العاصمة كابول والعديد من المقاطعات الأفغانية منذ أشهر تصاعدا للعنف. وضاعفت حركة طالبان من هجماتها في الوقت الذي كانت تتفاوض فيه مع الحكومة الأفغانية في الدوحة منذ سبتمبر.

ومع الانسحاب الكامل للقوات الأجنبية ومعظمها أميركية المقرر في مايو، يستعد الهزارة للأسوأ ويخشون عودة البلاد إلى الحرب الأهلية.

والهزارة أو "شيعة أفغانستان"، يمثلون بين عشرة وعشرين في المئة من 38 مليون أفغاني، ويحظون بدعم من إيران.

ويقوم الحرس الثوري الإيراني بتجنيد الميليشيات الشيعية في أفغانستان وزجّهم في مقدمة الاشتباكات الدائرة في سوريا إلى جانب قوات النظام السوري. واستدعت طهران الكثير منهم للمشاركة في قمع احتجاجات في نوفمبر من العام 2019، كما نقلت قسما آخر إلى داخل أفغانستان لتنفيذ أجندة الحرس الثوري هناك.

ومن بين الميليشيات الشيعية التابعة للحرس الثوري الإيراني، فيلق فاطميون الأفغاني شبه العسكري، ويتكون من مهاجرين أفغان ومن عناصر فيلق زينبيون، وهي ميليشيات باكستانية لجأت إلى إيران.

وتستغل إيران حالة الانفلات الأمني في أفغانستان لتوظيف الشيعة كورقة لتطبيق أجندتها في المنطقة، حيث تعمل على استغلال الصراعات الطائفية للزجّ بهم في حروبها بالوكالة في المنطقة.

ويسلط عودة العنف الضوء أيضا على مخاوف من احتمال أن يحمل الهزارة السلاح نتيجة إحباطهم من عدم تحرك الحكومة.

ويكرر العديد من الشيعة، أن التنظيم الجهادي يمكن أن يضرب في أي مكان وأنه لا يمكنهم التعويل إلا على أنفسهم في مجال الحماية.

ويذكر حميد الله الذي نجا في 2016 عندما كان طالبا في جامعة كابول، من هجوم انتحاري مزدوج أودى بحياة ثمانين شخصا وشكل بداية لموجة جديدة من العنف ضد طائفته.

ويقول إنه اليوم وأحد من الآلاف من المقاتلين المسلحين الذين يقودهم عبدالغني عليبور الشخصية التي تتمتع بشعبية كبيرة بين الهزارة.

وتؤكد المجموعة التي ينتمي إليها أنها تقوم بدوريات على الطرق لحماية السكان المحليين، ولكنها لا تتردد في خطف مسلحين من حركة طالبان لمبادلتهم برهائن من الهزارة.

ويشكل انتشار مثل هذه الميليشيات تحديا للحكومة التي تخشى ظهور مجموعات مسلحة قوية ومستقلة.

واضطر الهزارة في الكثير من الأحيان إلى الاعتماد على أنفسهم على امتداد التاريخ الأفغاني. وملامحهم التي يتميّز بها سكان آسيا الوسطى تجعل من السهل التعرف عليهم من قبل المتطرفين.

وخلال الحرب الأهلية الوحشية في تسعينات القرن الماضي، قُصف الهزارة بلا رحمة في القتال بين فصائل متعادية، ثم ذُبح الآلاف منهم عندما استولت حركة طالبان على الحكم.

> انتشار الميليشيات الشيعية يشكل تحديا للحكومة التي تخشى ظهور مجموعات مسلحة قوية ومستقلة بعد انسحاب القوات الأميركية

لكن قلة من المجموعات الأخرى استفادت كما استفاد الهزارة من النظام الجديد الذي تأسس بعد سقوط نظام طالبان الأصولي الذي أطاح به تحالف بقيادة الولايات المتحدة في 2001. وأرسل الهزارة أبناءهم بمن فيهم البنات إلى المدارس بشكل كثيف ودخلوا الساحة السياسية، لكن هذه المكاسب لا تزال هشة.

وقتل المئات من الهزارة منذ ذلك الحين في هجمات لتنظيم الدولة الإسلامية استهدفت مساجد ومدارس وتجمعات ومستشفيات في داشت بارشي، الجيب الذي يقيم فيه الهزارة في غرب كابول.

وقالت سيما سمار، الرئيسة السابقة للجنة الأفغانية المستقلة لحقوق الإنسان، "حتى بوجود القوات الأميركية وحلف شمال الأطلسي في أفغانستان كانوا في وضع هش".

وفرّ بعض الهزارة من العاصمة إلى ولاية باميان مهد هذه الطائفة والتي بقيت لفترة طويلة تعتبر من أكثر مناطق البلاد أمانا.

وحتى مغادرة البلاد لا تشكل ضمانا. فقد قتل تنظيم الدولة الإسلامية في باكستان في يناير مجموعة من عمال مناجم الهزارة، بينهم عدد من الأفغان.

وغربا، انتهى الأمر بالآلاف من الهزارة الذين عبروا الحدود مع إيران إلى الانتشار في إطار المجموعات الشيعية في سوريا خلال العقد الماضي.

القادم أسوأ